أخلاق العاطفة والتحول إلى أخلاق الواجب في الفلسفة الحديثة

[روسو وكانط]

إعـــداد

الدكتور/ فتحي محمد نبيه شعبان

مقـــدمة

إن المنهج العلمي الذي بعثه نيوتن بعثاً جديداً في القرن الثامن عشر ، وما توفر على أثره من إمكانيات وقدرات عقلية لمفكري هذا العصر ، والجرأة في التصدي لكل ما هو قديم من تعاليم ومعتقدات ثابتة توارثتها الأجيال منذ القدم على مدى قرون طويلة كل هذه العوامل قد خلقت البيئة المناسبة الخصبة لإنتاج نظريات استطاعت أن تصمد وتقضي على كل ما عساه أن يطل برأسه من أفكار بالية وفلسفات نظرية ، ومن ثم استطاعت هذه النظريات التنويرية الجديدة أن تشكل الفكر البشري وتصحح مساره في العصور التالية ومن بين هذه النظريات النظرية الطبيعية التي تؤكد على أثر العواطف الطبيعية في الإنسان عند جان جاك روسو .

لقد أحدثت العواطف الإنسانية في ميدان الأخلاق ثورة جائحة فأحرزت أخلاق العاطفة انتصارات واسعة في القرن الثامن عشر والقرون التالية مناهضة بذلك للمذهب العقلي الذي ساد طوال عصور الفلسفة منذ القدم ، وأخلاق الواجب قد نمت وازدهرت وازدادت عمقاً ورسوخاً بين أحضانها . صحيح أن أخلاق الواجب أصبحت مختلفة عنها تماماً إلا أن كانط قد اعترف بفضل روسو عليه في مذهبه .إن مذهب العاطفة كانت له أصداء بعيدة المدى أيضاً في القرن التاسع عشر بحيث أن روسو فيلسوف عصر التنوير أصبح نقطة تحول هيأت وشكلت الرومانتيكية ، وفي القرن العشرين فقد كان له تأثير مباشر أو غير مباشر على الكثير من الفلسفات الكبرى في ذلك القرن .

إن أهمية أخلاق العاطفة ترجع إلى أنها علامة بارزة على ميلاد فكر جديد غير مسبوق ، إنه الواجب الخلقي الذي يأتينا من أعماق الضمير ، وأهمية العاطفة في حد ذاتها ترجع إلى كونها نقطة البداية التي انطلقت منها الحركة الرومانتيكية . واتجاه الفكر نحو الحياة البدائية هو إيذان بميلاد عهد جديد ، إنه عهد كانط رائد العقلانية في الفكر الحديث وعهد الرومانتيكية ، وفكر روسو هو الضوء الذي نفذ في أصيل عصر العقل . ومن هذا المنطلق فقد وضعت هذا البحث تحت عبارة " أخلاق العاطفة والتحول إلى أخلاق الواجب في الفلسفة الحديثة". ويرجع سبب اختياري لهذا الموضوع هو التعرف على الأخلاق بصبغتها العاطفية عند روسو وأخلاق الواجب بصبغتها العقلية عند كانط . وما لأخلاق العاطفة من عظيم الأثر في إقامة الواجب الأخلاقي على أساس العقل العملي .

وتهدف هذه الدراسة إلى بيان كيف كانت أخلاق العاطفة نقطة البداية التي انطلقت منها أخلاق الواجب وبيان كيف تأثر كانط بروسو في فلسفته الأخلاقية وكيف اختلف عنه ، ولتحقيق هذا كله فقد استخدمت المنهج التحليلي والمقارن .

ومن هنا فقد قسمت هذه الدراسة إلى النقاط الآتية :

١) العاطفة والواجب في فلسفتي روسو وكانط

٢) الأخلاق عند روسو وكانط.

٣) الفضيلة والعواطف الطبيعية.

٤) الفضيلة .

٥) عاطفة الشفقة.

٦) عاطفة الحب .

<u>الإرادة والضمير عند روسو وكانط</u> .

١) الإرادة.

٢) الضمير.

والله أسأل أن أكون قد وفقت في إعداد هذا البحث ، فإن كنت قد أصبت فهذا فضل من الله سبحانه وتعالى ، وإن كنت قد أخطأت فمن نفسي ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

دكتـــور/ فتحي محمد نبيه شعبان

العاطفة والواجب في فلسفتي روسو وكانط

وسنحاول الآن أن ننظر في موضوع أخلاق العاطفة وأخلاق الواجب عند "جان جاك روسو" (•) و"إيمانويل كانط" ، ولكن قبل أن نتطرق إلى البحث في هذا الموضوع ينبغي علينا منذ البداية أن نشير إلى ما أورده إميل بوترو في كتابه "فلسفة كانط" عن علاقة كانط بروسو وتأثره به .

ذهب بوترو إلى أن كانط (■) قد قرأ "روسو" وملأته هذه القراءة حماسة بالغة جعلته ينسى عاداته ويخرج على ساعة تريضه . وهو

(•) جان جاك روسو (٢٨ يونيو ١٧١٢-٢ يوليو ١٧٨٨) فيلسوف و كاتب و محلل سياسي سويسري أثرت أفكاره السياسية في الثورة الفرنسية و في تطوير الاشتراكية و نمو القومية. و تعبر مقولتة الشهيرة "يولد الإنسان حرا و لكننا محاطون بالقيود في كل مكان" و التي كتبها في أهم مولفاتة " العقد الاجتماعي" تعتبر أفضل تعبير عن أفكاره الثورية و ربما المتطرفة.

http://arb3.maktoob.com/vb/arb85962/

(■) إما نويل كانط [١٧٢٤ ــ ١٧٠٤] : فيلسوف ألماني . يعد واحدامن أهم وأكبر الفلاسفة في العصور الحديثة كان والد كنت سرّاجا مجتهدا في عمله. أما والدته آنا رويتر فكانت شديدة التدين حريصة على سماع المواعظ مما دعاها إلى إلحاق إيمانويل بمعهد فردريك الذي بقي فيه لمدة ثماني سنوات قاسية يصفها بقوله «إن الخوف والرعدة يغلبانه حين يتذكر تلك الأيام». توفيت أمه وهو في الثالثة عشرة من العمر فيما توفي والده حين كان عمره اثنتين وعشرين سنة مما يعني تحمله لجزء من مصاريف أسرته. يفسر البعض بهذه النشأة القاسية تلك الصرامة والجدية التي كانت إحدى سمات هذا الفيلسوف

يقول " لقد كنت بطبعي طلعة مولعاً بالعلم ، ووضعت فيه شرف الإنسان، وكنت أزدري العوام الجهال ، فردني روسو إلى الصواب ، وعلمني أن أرغب عن متاع الغرور ، وأن أضع في مكارم الأخلاق كرامة الإنسان على الحقيقة . لقد كان روسو أشبه بنيوتن الأخلاق ، لقد استكشف في العنصر الأخلاقي ما يمسك على الطبيعة الإنسانية وحدتها ، كما أن نيوتن قد وجد المبدأ الذي يربط قوانين الطبيعة الفيزيقية بعضها ببعض . وفوق ذلك كانت له هذه الفكرة : وهي أن الإرادات تستطيع ويجب أن يؤثر بعضها في بعض وأن الناس يجب أن يعملوا على تربية بعضهم البعض ، فلم تعد الفضيلة قائمة في الكمال الفردي ، بل في العلاقات الصحيحة بين الناس ، ويجب أن تقوم جمهورية من الإرادات " . (١) من هذا النص المقتبس عن كانط نلاحظ مدى تأثير روسو عليه ، لقد تعلم كانط من روسو الكثير وبالذات الاهتمام بكرامة الإنسان . ونستطيع أيضاً أن نستخرج من هذا النص كذلك تأكيد كانط على الروح العلمية التي اتسمت بها نظرية روسو في الأخلاق. وهذا واضح من المماثلة التي ماثل فيها بين روسو ونيوتن : من حيث أن روسو اكتشف في الأخلاق ما يمسك على الطبيعة الإنسانية وحدتها ، أما نيوتن فقد عثر على المبدأ الذي يربط قوانين الطبيعة الفيزيقية بعضها ببعض .

---

http://www.marefa.org/index.php/%D8%A5%D9%8A%D9%85%D8%A7%D9%86%D9%88%D9%8A%D9%84_%D9%83%D9%86%D8%AA.

(١) إميل بوترو ، **فلسفة كانط** ، ترجمة دكتور عثمان أمين [الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢] ص : ٣٠٠ .

ويؤكد كانط في عبارته على مسألة التأثير بين الإرادات ، فالإرادات تستطيع أن تؤثر بعضها في بعض ، ويجب أن يؤثر أيضاً بعضها في بعض ، وكانط في هذا إنما يعبر عن فضل روسو عليه . ومن علامات تأثير روسو عليه أيضاً في ميدان الأخلاق هو اهتمامه بأن الناس يجب أن يجدوا ويعملوا على تربية بعضهم البعض . أما بالنسبة لمسألة الفضيلة فنجد أن كانط فيها قد تأثر بروسو ، فالمكان الحقيقي للفضيلة لا يوجد إلا في العلاقات الصحيحة بين الناس لا الكمال الفردي . وأخيراً يطالب بأن توجد جمهورية من الإرادات . وسنحاول بعد هذه الإشارة العابرة لتأثير روسو على كانط القيام ببحث مسألة كيف كانت أخلاق العاطفة نقطة الانطلاق التي انطلق منها كانط لتأسيس مذهبه في الأخلاق.

١- الأخلاق عند روسو وكانط :

إن الأفكار الأخلاقية عند روسو تتسم بأنها بسيطة ، ومتجانسة ، فهذه الأخلاق بسيطة لأنها ترتد إلى مبالغة روسو في تقدير أهمية الضمير ونقده للعقل ، أنها تقوم على مبادئ طبيعية فطرية تنبع من الداخل ولا تفرض على الإنسان من الخارج ، إنها متأصلة في طبيعة الإنسان ، إنها أخلاق العاطفة لأنها ترتد إلى مبدأ حب الذات (*) في

(*) وأول المصطلحات التي نود تحديد معناها عند جان جاك روسو ما أسماه L'aomur de soi هو حب الذات ويرتبط بالأنانية والرغبة في البقاء وهذا في حالة إنسان الطبيعة ، فعنصر الأنانية تبعاً لهذا المصطلح هو العنصر الغلاب ، وهنا يكون الإنسان مفرداً وحيداً متوحداً .

والمصطلح الثاني L'amour propre شعور حاد بأن الشخص لديه قيمته الشخصية والاحترام الذي يستحقه.

الإنسان ، وهو دافع أولي بسيط يتطور طبقاً لنظام وتقدم مشاعرنا ومعرفتنا ، إن هذا الدافع ينمو تدريجياً فيأخذ أشكالاً أكثر تعقيداً [١]

---

١ ــ النجاح في العمل هو إرضاء Amour propre .

٢ ــ لديها الكثير من [فخر ــ عزة نفس ــ عتو]

Dictionnaire du Francais Re'pérence apprentissage – sous la-direction de Josette Rey – DeBove co outeur du Nouveou petit Robert [1993]

Amour propre شعور بأن الشخص له قيمتة الخاصة

Dictionnaire universel – PRODARD – Et Taupin – Collection 03 – Edition 04 – HACHEFTTE – Hachette

L'amour proper هذا في إطار المجتمع المدني ، هنا فالإنسان لا في علاقته بذاته وإنما في علاقته بالآخرين ، فإذا كان L'aomur de soi هو حب لبقاء الذات فذلك في حالة الإنسان الطبيعي أو حالة الطبيعة ، فالإنسان يريد أن يبقى ، وفي الحالة الثانية حالة الاجتماع الإنسان يهمه نظرة الآخر إليه يعني صورة الذات في عيون الآخر فماذا أكون في نظر الآخر؟ فهنا ليس حب الذات من أجل البقاء وإنما حب تأكيد الذات أي تحقيق الذات ، فهنا تقييم الإنسان لنفسه مستمد من تقييم الآخرين له واعتراف الآخرين به كإنسان له حرية وله كرامة ، وكذلك فإن هيجل قد أخذ هذه التفرقة من جان جاك روسو قد عملها هيجل بطريقة ميتافيزيقية في غاية الجمال حينما قال أن الإنسان كالحيوان لديه رغبة في أشياء خارجية كطلب الطعام والشراب أي يسد هذه الاحتياجات أو الرغبات في أشياء تكون خارجه ، إنما الإنسان يرغب في شيء آخر ، وهذا ما يميزه عن الحيوان فليس هذا هو الإنسان الطبيعي وإنما هو الإنسان الاجتماعي الذي يرغب في رغبة الآخرين فيه . إنه يرغب أن يكون مرغوباً من الآخرين ولذلك قال هيجل الإنسان رغبة في رغبة ، فالرغبة في الرغبة هي L'amour proper تأكيد الذات . أما المصطلح الثالث والأخير فهو ما يسمى La Politesse، فالمقصود بهذا المصطلح عند روسو هو الأدب المبالغ فيه ليس الأدب المعروف وإنما الأدب المبالغ فيه ، أي الأدب الزائد عن الحد ، ذلك النوع الذي يقترب من النفاق ومن الرياء ، لقد كان جان جاك روسو ينقد ألوان النفاق والرياء السائدة في المجتمع الفرنسي وبخاصة الطبقة الأرستقراطية التي كانت تسير في سلوكها على قواعد من الأدب المصطنع والمفتعل وهو ما يطلق عليه La Politesse أي قواعد الإتيكيت أي التصرف حسب ما تقتضيه قواعدLa Politesse قواعد اتيكيت ، يعني التقولب في قالب الإتيكيت ، وقواعد الإتيكيت وبالتالي يكون الإنسان بعيداً عن نفسه ، بعيداً عن طبيعته ، بعيداً عن عفويته وتلقائيته ، فهذا الإنسان مفتعل مصطنع ، فهذا الإنسان متقولب في قوالب La Politesse تحت الطبقة الأرستقراطية . فجان جاك روسو ينقدLa Politesse نقداً مريراً في كتاباته فلا نستطيع إلا أن نقول أنه ينقد الأدب المفتعل المصطنع المبالغ فيه الزائد عن الحد الذي يخرج الإنسان عن طبيعته ويقضي على طبيعته ولا يجعله واحداً مع نفسه أي منسجماً مع طبيعته ، فلا يكون إنساناً طبيعياً .

(1) Grimsley Ronald, The Philosophy of Rousseau, [London, Oxford University. 1973] PP 54 – 55 .

وتبعاً لروسو فإننا يجب أن نحب أنفسنا من أجل بقائنا ، ويجب أن نحب أنفسنا أكثر من أي شيء آخر ، فحب الذات هو منبع عواطفنا، ومبدأ جميع العواطف الأخرى ، وهو العاطفة الفطرية الغريزية التي يولد الفرد مزوداً بها ، وحب الذات خير دائماً ويلائم النظام طالما أن كل واحد مكلف بالمحافظة على ذاته[١]. ومن الخطأ أن نفهم الأخلاق على أساس العاطفة أو الميول الطبيعية وحدها فهي تتصل بالجانب العقلاني في الشخصية الإنسانية ، لكن ما يمكن ذكره هنا هو أن الأخلاق تخضع للعاطفة أكثر من العقل .

لقد قام روسو برفض الفلسفات العقلية المجردة وما يتولد عنها من اعتبارات ميتافيزيقية ، يقول روسو "ليست الفلسفة أن نرتمي في أحضان التفكير المذل وما يجره علينا من تعاسة وشقاء" [٢] . وما يرفضه روسو هو التأمل العقلي أو ما يسمى بدهاء العقل أو الفلسفة العقيمة ، فهذه الجوانب ليست طبيعية بل تخرج الإنسان عن طبيعته الحقيقية تلك الطبيعة التي تقوم في جوهرها على مبدأ حب الذات .

والموضوع الأساسي عند روسو ، ليس هو الأنا **[كما هو الحال عند ديكارت ، ولا في أي علم نفس]** ولكن الحياة البدائية ليست " أنا أفكر ، إذن أنا موجود " بل حب الذات في الحياة هو التحليل الفينومينولوجي للحياة ــ أي تقليل éidétique . [٣] من هنا

---

(2) Rousseau Jean Jacques – **Emile Ou de L'education editions Gallimard 1969** . P : 491.

(3) Rousseau Jean Jacques – **Discours sur les Sciences Et Les Arts – Discours sur L'origine De L'inégalité** – [paris 1971] P : 56 .

(4) http://www.editions-verdier.fr/v3/oeuvre-rousseauphilo.html

يرفض روسو الأفكار التأملية المجردة ويؤكد على العناصر الطبيعية . والمبدأ الديكارتي الذي يركز على الأنا ينشأ أساساً عن اعتبارات نظرية ولا يتصل بالجوهر الحقيقي في الإنسان من عواطف ورغبات وغيرها. وموقف روسو هذا هو رفض للأنساق الفلسفية التي ازدهرت في القرن السابع عشر عند العقليين. ويشترك روسو مع ديكارت فقط في إزاحة كل ما هو مفتعل وغريب عن الإنسان بعملية تشبه عملية الشك الديكارتي حين وضع ديكارت كل شيء موضع الشك بهدف الوصول إلى الإنسان الحقيقي لا الإنسان المزيف .

وبالنظر إلى الحساسية بوصفها عنصر طبيعي في الإنسان كما ذهب إلى ذلك روسو فإنها تتولد عن مبدأ حب الذات فما هي هذه الحساسية ؟ وما أنواعها ؟ يوضح روسو في فقرة هامة في المحاورات أن الحساسية ليست دافعاً فطرياً بسيطاً وإنما تأخذ شكلين : مادي وأخلاقي . وبينما نجد أن الحساسية المادية مرتبطة أساساً بإشباع الشهوات الجسدية فإن الحساسية الأخلاقية تعبر عن نفسها كقدرة على إشباع الحاجات العاطفية خلال انجذاب فوري للآخرين [أو نفور منهم] ، وبينما تستجيب الحساسية المادية أساساً للأشياء ولا تتعلق إلا بالحفاظ المادي على الذات فإن الحساسية الأخلاقية أو النشطة تمكننا من أن نربط انفعالاتنا بالبشر الآخرين [1] يقول روسو إن " الحساسية مصدر جميع العواطف، والخيال يحدد ميلها وكل مخلوق شاعر بصلاته ، وعلى الإنسان أن يتخيل ما هو ملائم بطبيعته حتى لا يقع في أضاليل

(1) Grimsley Ronald – **Op – Cit,** P : 56 .

الخيال التي تحول إلى مفاسد عواطف جميع المخلوقات "[١] . إن حديث روسو عن الحساسية هكذا يبين أنه يعتبر كل ما هو طبيعي أساس الأخلاق الحقة ، ومن ثم فإن الأخلاق غير العاطفية هي مجرد مبادئ فارغة من كل مضمون .

ولعل روسو يتهم جميع الفلسفات العقلية بأنها لم تسهم في تقدم الأخلاق ، بل إنها تفسدها وتصيبها بالعجز . وذلك واضح من اهتمامه وتركيزه على مبدأ حب الذات وما ينشأ عنه من حساسية سواء الحساسية المادية أو الحساسية الأخلاقية . فهو يقول في كتابه الثاني "أصل عدم المساواة وهو يعارض الفلسفات التأملية " إن الإنسان (●) المفكر حيوان فاسد "[٢] . تعبر هذه الكلمات عن رفض روسو للمبالغة في استخدام العقل المجرد وما يتولد عنه من علم وفلسفة وميتافيزيقا ، ولم يتابعه كانط في ازدرائه وكراهيته للعقل النظري، وإن الميتافيزيقا في نظر كانط لا يجوز البحث عنها في حدود العقل النظري الخالص . يقول كانط في كتابه " نقد العقل المجرد" " إن الاعتبارات الميتافيزيقية كانت حتى الآن مجرد حصر عشوائي" [٣]. فإذا كانت الميتافيزيقا لا يجوز البحث عنها في العقل النظري فإن ذلك ممكن بالنسبة للعقل العملي حيث أسقط كانط الوسائط جميعاً لأنه يضعنا فجأة أمام الشيء في

---

(2) Rousseau Jean Jacques – **Emile Ou de L'education** P : 561

(●) " L' homme qui médite est un animal dépravé ."

(1) Rousseau Jean Jacques – **Discours sur les Sciences Et Les Arts – Discours sur L'origine De L'inégalité** P : 168 .

(2) Kant Immanuel – **Critque of prue reason** – Transilated by kemp smith Macmillan and Co., Limtied st, Martin's street [London 1934] P : 15 .

ذاته أيضاً ، حين يضعنا وجهًا لوجه دون وساطة أمام الذات الإنسانية والضمير الخلقي.

لقد كانت أخلاق العاطفة على هذا النحو هي الأرض الخصبة التي نبتت وازدهرت فيها أخلاق الواجب، وحسب اعتراف كانط بفضل روسو عليه كما يقول كاسيرر " إن روسو كان بالنسبة لكانط بمثابة المفكر الذي أيقظه من سباته الدوجماتيقي وذلك في مجال الأخلاق الذاتية . وألهمه بأسئلة جديدة ونبهه إلى حلول جديدة " [١] وموقف كانط الفلسفي القائل بأننا لا نعرف إلا الظواهر لطمة للميتافيزيقا الأنطولوجية التقليدية لم يخفف من وقعها إلا تأسيسه للميتافيزيقا من جديد لا كمعرفة وإنما فقط كنتيجة لقيام الواجب الخلقي الذي يستوجب خلود النفس ووجود الله سبحانه وتعالى[٢] . لقد كانت فلسفة روسو إذن نقطة الانطلاق التي انطلق منها كانط ، وببراعة شديدة لا نظير لها أسس مذهبه الأخلاقي ، فالميتافيزيقا التي رفضها كانط في العقل النظري وقال باستحالتها كمعرفة قد أعاد بناءها في العقل العملي على أسس جديدة متأثراً بالطبع بفلسفة روسو .

---

(3) Cassirer Ernest Rousseau, Kant , Goethe, Prince University . 1946. p: 52

(٤) دكتور محمد ثابت الفندي _ مع الفيلسوف [دار المعرفة الجامعية ١٩٨٧] ص: ٢٥٢ .

ودراسة الواجب الأخلاقي عند كانط لا يمكن فهمها فهماً صحيحاً إلا عندما نقف على حقيقة فلسفة روسو الأخلاقية . فقد تكلمنا عن الحساسية المادية والحساسية الأخلاقية عند روسو ويتعين علينا أن نلقي مزيداً من الضوء حول هذه الحساسية فينبغي القول أنه يوجد هناك كما يذكر روسو عنصر فوري في حساسيتنا الأخلاقية ، وهو قوة انجذاب روحي توازي الانجذاب الذي يمكن أن يوجد بين الأشياء المادية مع أن من المحتمل أن يكون ذلك ذو نوعية أرقى . وعندما تعمل هذه القوة بإيجابية فإنها تعد العمل البسيط للطبيعة الذي يعمل لتوسيع رقعة مشاعرنا عن وجودنا وتقويتها ، وهو مصدر كل العواطف اللطيفة والتي تشعرنا بالحب . وهذه الحساسية الإيجابية تنبع مباشرة من حب الذات وهو مادة نقية للشعور لا يلعب فيها التأمل أي دور . لذلك فمع ظهور هذه الحساسية الممتدة يعيش الفرد عواطف تقوده لأن ينتقل بنفسه خارج ذاته . وتجبره القوة المتوسعة للقلب أن ينظر للآخرين . وهو يشعر بهذه الحالة من القوة التي تخرج به من حدود ذاته [١]. وفي هذه النظرة أيضاً نجد روسو لا يفسح مجالاً للتأمل العقلي ، إنه يسعى جاهداً لإقامة ميتافيزيقا جديدة على أساس الطبيعة ، ويرى ذلك من خلال حديثه عن القلب وحب الذات والحساسية وغير ذلك من الأمور الطبيعية.

---

(1) Grimsley Ronald – **Op – Cit** , P : 56 .

وإذا انتقلنا إلى كانط فسنجد أنه هو الآخر قد سعى إلى إقامة فلسفة أخلاقية نقية نقاءً تاماً بعيدة تماماً عن كل الاعتبارات التجريبية والأنثروبولوجية . فضرورة وجود هذه الفلسفة أمر يتضح بذاته من الفكرة المعتادة التي لدينا عن الواجب وعن القوانين الأخلاقية . والقانون الأخلاقي عند كانط لابد أن يحمل طابع الضرورة المطلقة . إن قاعدة الإلزام هنا لابد من البحث عنها بطريقة قبلية في تصورات العقل الخالص وحدها . (١) وكل فلسفة أخلاقية في نظر كانط تستند استناداً تاماً على الجزء الخالص منها ، وعند تطبيقها على الإنسان فإنها لا تستعير أقل نصيب من المعرفة به [أي من الأنثروبولوجيا] بل تعطيه ، بوصفه كائناً عاقلاً ، قوانين قبلية ، تتطلب بالطبع من خلال التجربة ملكة حكم حادة (٢) . لقد أراد كانط إذن كما هو الحال عند روسو أن يخلص الأخلاق من كل ما هو غريب ، وأن يصل إلى فلسفة أخلاقية نقية نقاءً تاماً من كل اعتبارات تجريبية ، فقوة الأخلاق عند كانط تكمن في استنادها إلى الجزء الخالص منها وإذا أردنا البحث عنها فلابد أن يكون هذا البحث قبلياً في تصورات العقل المجرد وليس على نحو تجريبي ، وهنا تبدأ فلسفة كانط في الابتعاد عن فلسفة روسو بتركيزها الشديد على الاعتبارات القبلية لتصورات العقل المجرد . لقد جعل كانط الإنسان من هذه الجهة أقرب إلى الشيء في ذاته .

---

(٢) ما نويل كانت ـــــ **تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق** ـــــ ترجمة دكتور عبد الغفار مكاوي راجع الترجمة دكتور عبد الرحمن بدوي [الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠] ص : ٨ .

(١) **المرجع السابق** ص : ٨ ـــــ ٩ .

إن أهمية ميتافيزيقا الأخلاق عند كانط تكمن في أنها تصدر عن دوافع التأمل المجرد التي تستهدف البحث في مصدر القواعد الأخلاقية الموجودة في عقلنا قبلياً ، هذا من جهة ومن جهة أخرى أن الأخلاق نفسها تتعرض لألوان من الفساد لا حصر لها طالما تفتقر إلى ذلك المعيار والمقياس الأسمى لكي نحكم عليها حكماً صحيحاً . ذلك لأن كل ما ينبغي له أن يكون خيراً من الناحية الأخلاقية لا يكفي فيه أن يكون مطابقاً للقانون الخلقي ، بل لابد له كذلك أن يحدث من أجله ؛ وألا كان هذا التطابق تطابقاً عارضاً ". [١] إن كانط في البحث عن "الخير" الحقيقي لا يعتقد بأن أي نتيجة خيرة بطبيعتها . فاللذة أو السعادة يمكن أن تتولدا من خلال أكثر الأفعال شراً . وإنه لا يؤمن أيضاً بالسمات الشخصية "الخيرة" ، كالإبداع ، والذكاء ، والشجاعة ...الخ. يمكن أن تستخدم كلها في الشر . وفي الواقع ، فهو يستخدم تعبير الخير لكي يصف "الإرادة الخيرة"، التي يقصد بها العزم على التصرف تماماً طبقاً لما يقتضيه الواجب . ويعتقد بأن الفرد يمكن أن يستخدم العقل لأداء ما هو واجب .[٢] لقد استوحى كانط من روسو إذن ميتافيزيقا جديدة تقوم كنتيجة للواجب الخلقي النابع من الضمير ، لكنه لم يتابعه على طول الطريق ، إنه اهتم بالواجب الخلقي الذي يقوم على العقل . وكانط شأنه شأن روسو قد سعى إلى تطهير الأخلاق وتنقيتها من كل العناصر التجريبية والغريبة عنها . وإذا أردنا البحث عن الأخلاق عند كانط

---

(٢) المرجع السابق ص : ٩ .

(3) www. Rsrevision. Com /Aleve/ ethics/ Kant / index . htm..

فلابد أن يكون هذا البحث قبلياً في تصورات العقل المجرد وليس تجريبيا .

يذهب هنري أيكن في كتابه عصر الأيديولوجيا ، على صعيد المقارنة بين روسو وكانط فيقول"اتخذ كانط من روسو ، المؤسس الحقيقي للرومانتيكية القضية القائلة بأولية الإرادة الأخلاقية . وعلى أي حال ، فإنه على عكس روسو ، كان حريصاً على الدوام في أن يكيف هذه القضية بتأكيده بأن الإرادة الأخلاقية هي في ذات الوقت إرادة عاقلة لأن تصور القانون يكون أساسياً بالنسبة لها . إنه لم يشارك روسو خوفه أو كراهيته للعقل النظري ، ولا يشاركه رغبته في إخضاع المعايير العقلية للمعايير الأخلاقية أو الدينية . وربما يكون صحيحاً، بمعنى ما كما ادعى باسكال ، القول أن للقلب " أسبابه " التي لا يعرفها العقل . ولكن بالنسبة لكانط فإن هذا لا يبرر لنا أبداً تخلينا عن قوانين المنطق لصالح الضمير أو الإيمان ولا يبيح لنا أن نعتقد بأن القمر مصنوع من الجبن الأخضر إذا كان يبدو للأخلاق أو الدين أن تقتضي ذلك ".[1] وكما هو واضح من هذه العبارة أن كانط قد تأثر بروسو ولكنه لم يمض معه في نفس الاتجاه. فأول علامات التأثير تظهر في اشتقاقه من روسو قضيته الهامة وهي القول بأولية الإرادة الأخلاقية ،

---

(1) Aiken henry D. **The age of ideology** – The 19 th Century Philosophers [published by The New American Library 1956] pp : 51 -52 .

- هنري أيكن ، **عصر الأيدلوجية** ــ ترجمة د/ فؤاد زكريا [مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٣] ص ٦٣-٦٤ .

لكنه ذهب إلى ما هو أبعد من روسو ، إنه ربط هذه القضية بالشرط القائل أن الإرادة الأخلاقية هي إرادة عاقلة تستوعب في مضمونها تصور القانون ، فكانط لم يتوقف عند أولية الإرادة الأخلاقية ولكنه رأى فيها إرادة أخلاقية عاقلة . ونقطة الاختلاف الثانية تتمثل في أن كانط لم يتبع روسو في ازدرائه للعقل النظري والحط من قدره . والنقطة الثالثة هي أن كانط لم يتابع روسو في إخضاعه المعايير العقلية للمعايير الأخلاقية أو الدينية فكل واحد منهما مستقل عن الآخر . وعند كانط أنه لا يجوز التخلي عن قوانين المنطق لحساب الضمير أو الإيمان ، وذلك يتعارض بكل تأكيد مع رأي باسكال القائل أن للقلب أسبابه التي لا يعرفها العقل . ولنحاول بعد ذلك البحث في نقطتين أساسيتين وهما "الفضيلة " و "الإرادة" .

وخلاصة هذا أن أخلاق العاطفة كما وصفها روسو هي البيئة المناسبة التي نمت فيها نظرية كانط في الواجب الأخلاقي . لقد كانت فلسفة روسو هي الأرض الثابتة التي انطلق منها كانط ليعيد بناء الميتافيزيقا من جديد لا على أساس العقل النظري المجرد وإنما على أساس الضمير الخلقي ومسلماته المعروفة .

٢- الفضيلة والعواطف الطبيعية :

أ - الفضيلة:

ولننتقل بعد هذا التحليل إلى النظر في الفضيلة الطبيعية عند روسو. يقول روسو "أيتها (●) الفضيلة أيها العلم الراقي للعقول البسيطة، هل إذا أردنا أن نعرفك يتحتم علينا أن نمر بهذا العناء وهذا الاستعداد ؟ أليست مبادئك محفورة في سويداء القلوب ؟ هل علينا أن نعمل أكثر من أجل أن نتعلم قوانينك بدلاً من أن ندرس أنفسنا وأن نستمع لصوت الضمير في صمت العواطف ؟" . (١) إن عذوبة تلك الكلمات وجمالها بل تلك اللغة الساحرة تعكس دور العاطفة في مذهبه . وعندما نتأمل هذه العبارة فإننا نلاحظ أن المبدأ الذي أرساه روسو يختلف تماماً عن المبدأ السقراطي، فبدلاً من القول بأن الفضيلة علم كما هو الحال عند سقراط فإن روسو قد ربط بين الفضيلة والجهل وهذا ما أوضحته عبارته السابقة ، ومن ثم حلت العاطفة محل العقل . إنه أراد أن يقيم ميتافيزيقا جديدة لا على أساس العقل المجرد ولكن على أساس طبيعة الإنسان من عواطف وميول ورغبات وغير ذلك من الأمور الطبيعية .

(●) O vertu ! Science sublime des ámes simples, faut-il donc tant de peines et d'appareil pour te connaître ? Tes principes ne sont-ils pas gravés dans tous les coeurs, et ne suffit-il pas pour apprendre tes lois de rentrer en soi même et d'écouter la voix de sa conscience dans le silence des passions?

(1) Rousseau Jean Jacques – **Discours sur les Sciences Et Les Arts – Discours sur L'origine De L'inégalité** – [paris 1971] P: 59.

لقد تعرضت نظرية روسو لانتقادات كثيرة ، وفي سنة ١٧٦١ ، ظهرت "هيليوئيز الجديدة " لجان جاك روسو" Jacques Rousseau Jean"، وقد ورد فيها : يا جولي ! إن النفس الحساسة لهدية مشئومة من السماء !" ، والمؤلف أفاق همجي أتى من سويسرة ، وموسيقي ناشئ . لم يعن بدراسة القواعد قبل البدء في الكتابة .إنه مخلوق عجيب يعتنق عكس جميع الأفكار المقررة ، فيعلن أن الآداب والفنون أضرت بالإنسانية ، ويحتج على عدم تحقق العدالة الاجتماعية ويمجد الهوى ويعتد به . بل منذ عهده لم يعد الهوى نباتاً مستأنساً ، بل أضحى قوة غاشمة لا يستطيع شيء أن يقف نموها الذي لا يحد ، وستمزق وتنسف البنيان الذي كونه العقل ، وتمرح بين أطلاله [١]. إن هذا الاعتراض ينصب أساسا على مبدأ روسو الذي يشيد بالعاطفة أو الهوى الغريزي وازدراء العقل ، لكن روسو كان يهدف من وراء ذلك التقليل من أهمية الأنساق الفكرية الخالصة التي لا تستند إلى الواقع . ومن ثم فقد رأى روسو أن الإنسان ليس عقلاً فحسب ، وأنه عندما سار بعقله صنع الحضارة والعلم والقانون والسياسة ففسد فساداً كبيراً ، وهذا العلم بالذات وليد العقل ، أدى إلى تعاسة الإنسان بل إلى فضيلة زائفة .

---

(١) بول هازار ، **الفكر الأوربي في القرن الثامن عشر** ، الجزء الثاني ، نقله إلى العربية الدكتور محمد غلاب وراجعه الدكتور إبراهيم بيومي مدكور [القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٨] ص : ٥ .

وبالنسبة لروسو وفيما يتعلق بالفضيلة فإنه لا يتردد في La Rsuvell Heloise أن يصف الفضيلة على أنها حالة من الحرب ضد الدوافع الأنانية والتغلب عليها، ولكي يعيش المرء فيها عليه دائماً أن يقوم ببعض الصراع ضد نفسه. وهذه الفضيلة تعني القوة وليست هناك فضيلة بدون صراع ولا تتوافر هذه الأشياء إلا ويتولد معها النصر . إن الفضيلة لا تتكون فقط من أن تكون متزناً وإنما أن تكون كذلك بالانتصار على عواطفك والسيطرة على قلبك . (١) فالفضيلة عند روسو هكذا تتطلب القوة لمصارعة الدوافع الأنانية والتغلب عليها ، وعندئذ يوصف الإنسان بأنه فاضل . إن الصيحة التي أطلقها جان جاك روسو في القرن الثامن عشر والتي تنظر إلى الفضيلة على أنها فطرية إنما جاءت كرد فعل ضد الإسراف في استخدام العقل والمبالغة في تقدير دوره .

والأخلاق كما صورها روسو تفترض أولاً وجود قدرة على التطور والتحسن ، فهذه القدرة تسبق الاحتياجات الأخلاقية . والفرد يبدأ في إقامة علاقات مع الآخرين وذلك لأنه غير قادر على أن يظل راضياً عن وجوده . فالأخلاق تعبر عن ضعف الإنسان ، وتضطره إلى البحث عن الآخرين (٢) من هنا نلاحظ أن الإنسان كما وصفه روسو يختلف اختلافاً أساسياً عن غيره من المملكة الحيوانية فلديه القدرة على التحسن وهذه خاصية جوهرية لا تنفصل عن الإنسان فهو يولد مزوداً بها . والأخلاق تفترض أولاً هذه القدرة على التحسن أو الارتقاء أو كما يقال

---

(2) Grimsley Ronald – Op – Cit , PP : 62 - 63 .
(1) **Ibid** P : 61 .

قدرة الإنسان على بلوغ الكمال . والأفراد من بني الإنسان يتسمون بوجود رغبة لديهم لإقامة علاقات بينهم ، إذ أن الإنسان على خلاف الكائنات الأخرى لا يريد أن يظل راضياً عن وجوده ، والمعروف عن الأنواع الأخرى أنها تفتقر إلى هذه الميزة ، فالفرد منها يظل هو كما هو لا يتغير منذ ميلاده وحتى فنائه وشأنه شأن غيره من أفراد نوعه . فالأخلاق بهذا المعنى تعبر عن ضعف الإنسان وتضطره إلى البحث عن رفاقه ، ومن ثم فالإنسان لا يبحث عن وجوده وبقائه في الحياة كالحيوانات فحسب وإنما يسعى للبحث عن الآخرين من أجل تحقيق ذاته وذلك بما أوتي من ملكة الترقي .

ويبن لنا كتاب "ملاحظات عن الشعور بالجميل والجليل" الذي ظهر سنة ١٧٦٤ أن كانط تأثر بالإنجليز وروسو ، ويحاول أن يجاوزهم ، فقد ميز بين الفضائل المتبناه المحددة بشعور بسيط ، وبين الفضائل بالمعنى الدقيق وهي التي يحددها مبدأ ما . وهذا المبدأ يعرفه بالشعور الكلي بما للطبيعة الإنسانية من جمال وكرامة . ومن المتوقع أن هذا المزيج من المشاعر والتصورات لن يرضيه زمناً طويلاً (١) . من هنا نجد أن كانط لا يتفق تماماً مع روسو في مسألة الفضيلة فإذا كانت الفضيلة عند روسو توصف بأنها طبيعية فإن كانط ينظر إلى الفضيلة نظرة تختلف عن نظرة روسو إليها فالفضيلة المحددة عند كانط تستند في أساسها إلى مبدأ ما ، والفضائل عند كانط تنقسم إلى نوعين

---

(٢) إميل بوترو ، مرجع سابق ص : ٣٠١ .

إذ أنه قد ميز بين الفضائل المتبناه المحددة بشعور بسيط ، وبين الفضائل بالمعنى الدقيق وهي التي يحددها مبدأ ما .

ب – عاطفة الشفقة :

إن المسألة الهامة التي نود الاهتمام بها قبل النظر في عاطفة الشفقة عند روسو هي أن القرن الثامن عشر كان مرحلة التقدم والازدهار ، فقد كان التقدم العلمي والصناعي والفلسفي من أهم السمات المميزة لهذا القرن وكان لآراء الفلاسفة والمفكرين ورجال الدين أثر فعال في هذا التحول السريع الذي لحق بجميع جوانب الحياة [١] . من هذا المنطلق قام روسو بالبحث في الإنسان بحثاً علمياً دقيقاً متأثراً بمنهج الطبيعيات الذي بعثه نيوتن بعثاً جديداً . ومن علامات تأثر روسو بالروح العلمية في عصره متأثراً بنيوتن أنه اكتشف في العامل الأخلاقي ما يمسك على الطبيعة الإنسانية وحدتها ، هذا ما ذكره إميل بوترو في كتابه عن كانط وهو ما سنورده فيما بعد. وحديث روسو عن الشفقة الطبيعية والحب وغيرهما هو انعكاس للروح العلمية السائدة في عصره بحيث أصبح روسو نقطة تحول وفهم جديد للإنسان.

وقد لفت روسو انتباهنا بالفعل في كتابه Discorus inlegalite surl لأهمية "الشفقة الطبيعية" أو أول شعور نسبي يؤثر في القلب طبقاً لنظام الطبيعة . والشفقة الطبيعية هي الشعور الوحيد الذي يدفع الإنسان البدائي تجاه الكائنات الأخرى . وفي هذه المرحلة من الوجود الإنساني نجد أن هذا الدافع دافع أعمى وغير متأمل ، إلا أنه يعتبر أساساً

(1) Mortinet, Ander, **La cirlisaton Francaise Hatier** [Paris 1956] PP : 74 – 76 .

للإحساسات الأخرى الأكثر تطوراً والتي لها صفة توسعية بالفعل . إننا نأخذ شفقة بالغة عندما ننقل أنفسنا ونؤقلم أنفسنا مع معاناة المخلوق وعندما نترك طبيعتنا ، إذا جاز هذا التعبير ، لكي نكتسب طبيعته . إن الشفقة تأتي للوجود عندما تربط الروح المتوسعة بيني وبين إخوتي من البشر وعندما أشعر بنفسي مثلاً في هذه الروح . (١) إن حديث روسو عن الشفقة هكذا يوضح أن التأمل العقلي لا يدخل في مضمونها ، فإذا فحصنا هذا الشعور الطبيعي الذي يؤثر في القلب فإننا لن نجد مكاناً فيه للتأمل العقلي المجرد . إن الشفقة دافع أعمى وغير متأمل وهو مصدر للإحساسات الأخرى الأكثر تطوراً .

وفي كتاب : "إميل" [الكتاب الرابع]" يوضح روسو أن العطف أو الشفقة توحّد بين الذات الآلمة والذات المشفقة : فنحن لا نتألم في أنفسنا، بل فيه هو (٢) إن الشفقة التي نظر إليها روسو على أنها غريزية ومتأصلة في دافع طبيعي تنطوي في الواقع على تأمل معين في ذات الإنسان ، ولا يمكن أن نتجاهل نشاط الخيال والذاكرة والتأمل، فيمكن من خلال هذه الأمور أن نربط معاناة شخص آخر بما نشعر به في ذواتنا ثم نكيف أنفسنا معه. فالخيال والذاكرة والتأمل تتحد سوياً كي تجعل الإنسان يشعر بالشفقة لمعاناة رفاقه من البشر . والشفقة وحدها لا يمكن أن تكون الأساس الوحيد للأخلاق لأنها تظل مجرد دافع أو شعور، فهي تحتاج إلى تعاون العناصر الأخرى في الذات إذا كان لها

---

(1) Grimsley Ronald – Op – Cit ,PP : 56 – 57 .

(٢) دكتور عبد الرحمن بدوي ، **الأخلاق النظرية** ، [وكالة المطبوعات ١٩٧٥] ص : ٢٧٤ .

أن تكتسب دلالة أخلاقية حقيقية [١]. ووفقاً لروسو فإنه عندما نشفق على أحد، ففي هذه الحالة لا تقاس الشفقة بالكمية والمقدار ، ولكن تقاس بقيمة الإحساس ومداه تجاه الشخص الذي يعاني ، ولقد كان روسو يهتم بأن يقوم بتكوين فكر أكثر من اهتمامه بحشو العقل أي أن يهتم بالكيف دون الكم [٢]. وخلاصة هذا كله أن وصف روسو لعاطفة الشفقة يوضح أنه لم يبتعد عن الروح العلمية السائدة في عصره . ولكنه يختلف عن عصره في اهتمامه بالجانب الطبيعي في الإنسان وإقامة الأخلاق على أساس الضمير والحرية الطبيعية في الإنسان . ومن مظاهر تأثر روسو بالروح العلمية في عصره رفض الاعتبارات الميتافيزيقية التي انتشرت في القرن السابع عشر .

لكن الأخلاق عند كانط تختلف في هذا الصدد عن روسو ، فالأخلاق الحقيقية في نظر كانط لا صلة لها بالطبيعة . وكل محاولة للربط بين الضمير والطبيعة في نظره إنما هي محاولة فارغة وخروج على المبدأ الأخلاقي ، ولو أننا توقفنا عند العاطفة أو الشفقة كما وصفها روسو فسنجد أن كانط يرفضها لأنها مجرد إحساس أو وجدان أو ميل حسي ، بينما الواجب هو الباعث الحقيقي وليست الميول والعواطف والرغبات الطبيعية في الإنسان . ويشترك كانط مع المسيحية في السعي نحو الإخلاص ونقاء القلب وطهارة الضمير ويختلف عنها في تأكيده

---

(3) Grimsley Ronald - **Op – Cit** , P : 57 .
(4) Morent Damiel **Rousseau,** [Kalier Paris 1950] PP : 128 – 135 .

على الأخلاق بصبغتها العقلية الإرادية [١]. هنا يختلف كانط عن روسو، ففي حين يمجد روسو كل ما هو طبيعي في الإنسان من عواطف وميول ورغبات وعودة إلى الطبيعة وحالة البراءة البدائية ، ومن ثم إقامة ميتافيزيقا جديدة على أساس الطبيعة ، فإن كانط يرفض كل علاقة بين الضمير والطبيعة ، وأن كل محاولة للربط بين الضمير والطبيعة إنما هي محاولة لا جدوى منها ، وفي حين ينظر روسو إلى العاطفة والشفقة على أساس أنهما مجرد إحساس طبيعي فإن كانط ينظر إلى الواجب القائم على العقل على أساس أنه الباعث الحقيقي وليست العناصر الطبيعية . ومن هنا يلتقي كانط مع المسيحية .

ج ـ عاطفة الحـــب :

اتسمت فلسفات عصر التنوير بخصائص وسمات منها الإيمان الشديد بالعقل والعلم وفي هذا يقول كاسيرر " إن القرن الثامن عشر يتميز بإيمانه بالعقل والعلم، ففيهما تكمن قوة الإنسان وعظمته ، وكان هذا العصر على ثقة من أنه يستطيع فقط أن يتبنى التطور الكامل لفهم الإنسان والعناية بقواه العقلية كلها لتحويله إلى إنسان روحي ، وإيجاد إنسانية جديدة وهنيئة " [٢]. من هنا وتبعاً لعصره قام روسو كما هو واضح بوصف وتحليل عاطفة الحب على أساس علمي متأثراً بالطبع

---

(١) دكتور زكريا إبراهيم ، **عبقريات فلسفية** ، **كـــانط** [دار مصـــر للطباعـــة ١٩٧٢] ص : ١٣٤ - ١٣٥ .

(2) Cassirer Ernest - **roussea , Kant, Coethe** – Translated from German by J . Gutmann P . Osker and J . Herman Princeton [Univeristy Press 1947] P : 19 .

بمنهج نيوتن في العلوم الطبيعية . وسنحاول إلقاء مزيد من الضوء حول عاطفة الحب كما أوضحها روسو .

إن عاطفة الحب شأنها شأن عاطفة الشفقة لم تبتعد هي الأخرى عن الروح العلمية في القرن الثامن عشر . يرى روسو أن الحب شأنه شأن العواطف الأخرى الملتهبة التي تعد نكبة على الجنس البشري ، ولم يحظ بفاعلية إلا داخل المجتمع[١]. ويقارن روسو بين ما هو طبيعي وما هو مصطنع ، بين الدافع الجنسي وبين الحب ، فالدافع الجنسي دافع فطري يعتمد على الإشباع الفوري وإنه غير متعقل ، أما الحب فإنه صورة مصطنعة لأنه ينطوي على التأمل والمقارنة إلى جانب الشعور والرغبة فهو مرتبط بالإعجاب والتفضيل وبالاستجابة لمميزات وصفات مثل الجمال والفضيلة والميزة وهذه التفاعلات لا يعرفها الإنسان البدائي [٢] . فإذا كان يوجد اختلاف أساسي بين الغريزة الجنسية وبين الحب بمعناه الحقيقي فإن الحب في الحياة الحديثة قد تعرض لصدمات عنيفة أدت إلى تزييف معناه الأصيل . لقد اتسم الحب في المجتمع المعاصر بالأنانية المشينة وذلك يرجع إلى العقل أكثر منه إلى المشاعر[٣]. إن هذا التحليل الذي قدمه روسو لعاطفة الحب إنما يدل على الروح العلمية التي ميزت عصره . لقد أوضح الأساس الحقيقي الذي تستند إليه عاطفة الحب بأن أزاح عنها كل ما هو ليس بطبيعي .

---

(1) Rousseau Jean Jacques – **The Social Contract and Discouress,** [Everyman's Library, London , 1983] P : 68 .
(2) Grimsley Ronald – **Op – Cit ,** PP : 57 - 58 .
(3) **Ibid** PP : 58 – 59 .

والقضية التي دافع عنها روسو هي أن الحياة الحديثة قد أفسدت كل ما هو طبيعي في شتى صوره ، فالعلاقة الصحيحة الطبيعية بين الرجل والمرأة قد أسيء فهمها ، واختلت من كل جانب واتخذت صوراً مصطنعة [١] . أما اتجاه الغريزة في نظر روسو فهو غير محدد وكل من الجنسين ينجذب إلى الآخر وهذه هي حركة الطبيعة ، ويكون الاختيار والقبول والعطف الشخصي من قبيل المعرفة والثقافة .[٢] فيقرر أنه يجب أن يكون الحب متبادلاً ، ويجب أن يجعل الإنسان نفسه محبوباً ليحب ، بل يحب أن يجعل نفسه محبوباً أكثر مما سواه حتى يفضل على غيره وذلك في نظر المحبوب على الأقل . ومن ثم كانت نظراته الأولى نحو أمثاله ، ومن ثم كانت المقارنة الأولى معه ومن ثم كانت المنافسات والحسد ، ومن يذق حلاوة كونه محبوباً يود لو يكون محبوباً عند جميع الناس ، ومع الحب والصداقة تظهر الاختلافات والعداوة والحقد [٣]. في إطار هذا الوصف والتحليل نلمس دور العاطفة الطبيعية في فكر روسو ، ونلمس أيضاً دور الروح العلمية التي اتسمت بها نظريته والتي هي انعكاس لعصر التنوير . وبكلمات قليلة نقول اتسمت إذن نظرية روسو في الأخلاق باستنادها إلى العواطف الطبيعية . كما اتسم أيضاً فكر روسو بالروح العلمية وبإنكاره لكل ما هو مجرد أو نظري وما يتولد عنه من ميتافيزيقا.

---

(4) **Ibid** PP : 59 – 60 .
(5) Rousseau Jean Jacques – **Emile Ou de L'education** P : 493.
(1) **Ibid** P : 498 .

الإرادة والضمير عند روسو وكانط :

١-الإرادة :

ولننظر إلى الإرادة بوصفها العنصر الأساسي في الأخلاق ، فالإنسان كما يعلن روسو عليه أن يحمي نفسه من الضعف والصراع الداخلي باكتساب قوة جديدة تنطوي في النهاية على موقف متغير تجاه الآخرين ومن ثم تجاه نفسه . ولأنه يعرف ضعف مشاعره هو فإنه يسعى لتقوية نفسه خلال نشاط إرادته . والأخلاق الحقة توضح أن الخير وحده ليس أساساً كافياً للوجود الإنساني . فالإرادة عنصر ضروري للإنسان، والإنسان ضعيف بطبيعته ولكنه قوي بإرادته . وقوة الإرادة هي عبارة عن فضيلة تعبر عن ذاتها . تفترض قدرة الإنسان على مقاومة دوافعه الآنية في سبيل مبادئ سامية [١]. فإذا كان روسو قد بين أن الأخلاق تعبر عن ضعف الإنسان فإنه أوضح أن الإنسان يتميز بوجود إرادة ، وهذه الإرادة تعبر عن قوته . والخير ليس أساساً كافياً للوجود الإنساني ، إذ يتطلب هذا الأمر وجود إرادة فهي عنصر ضروري للإنسان .

إن الإرادة هي العنصر الأساسي في الأخلاق . والشعور وحده لن يكون فعالاً بدون الإرادة ، ويعجز عن إلهامنا بالأفعال . وبالنظر إلى الشفقة فإننا نجد أنها لا يمكن أن تؤدي إلى نتيجة إلا إذا كان بينها وبين الإرادة ارتباط قوي [٢] . والنقطة التي يريد روسو أن يلفت انتباهنا إليها هي أن العقل عنصر ضروري للإرادة ، فإذا كانت الإرادة

---

(2) Grimsley Ronald – **Op – Cit** , PP : 61 – 62 .
(3) **Ibid** : P : 63 .

في حاجة إلى أن ينشطها الشعور فإنها في حاجة أيضاً إلى أن ينيرها العقل . وعندما تعمل الإرادة جنباً إلى جنب مع العقل ، فإن الفرد يبدأ في إدراك أن وجوده قد منح حرية ، إنها الحرية الأخلاقية للإنسان الناضج [١]. وعندما يتفاعل الشعور والإرادة والعقل تتولد الحرية . فالأفعال لا تأتي إلا إذا تحقق الإرتباط بين الشعور والإرادة ، والشفقة كعاطفة طبيعية لا يمكن أن تكون فعالة بغير الإرادة . والإرادة إذا كانت في حاجة إلى أن ينشطها الشعور فهي أيضاً تحتاج إلى العقل لكي يقودها إلى الطريق القويم . إن هذه العناصر الثلاث لا تنفصل عن بعضها البعض . ولو توقفنا عند إستخدام روسو للعقل في ميدان الأخلاق فسنجد أنه يتحدث عن العقل الذي أسماه كانط فيما بعد عقلاً عملياً .

ففي نظر روسو إن الإرادة والفضيلة نظراً لأنهما ليستا فقط منفصلتين عن الشعور فإنهما تكونا جزءاً من خبرة شخصية حقيقية ، ومن ثم فإن الإرادة لا يمكن أن تظل عملاً رسمياً مجرداً ، والفضيلة تمّكن الإنسان من أداء واجبه في مناسبات صعبة في وقت قد يكون فيه ميله الحالي تابعاً لما يمليه عليه ميله الأناني ، والمصلحة الأخلاقية في نظر روسو أيضاً تستثنى المصلحة المادية الأنانية . والإنسان ينبغي عليه أن يكون مخلصاً لذاته العليا ، والفضيلة وحدها تسمح لنا بأن نستمتع بالسعادة عندما نحصل عليها [٢] . والنقطة الأساسية هنا هي أن الإرادة والفضيلة ليستا عملين مجردين وذلك لارتباطهما بالشعور ،

---

(1) **Loc – Cit** .
(2) **Ibid** PP : 63 – 64 .

ومن ثم فإنهما تكونان جزءًا من خبرة شخصية . إن محاولة روسو تلك هي محاولة لبناء ميتافيزيقا جديدة تختلف بالطبع عن المذاهب النظرية التي تبدت عند ديكارت وأتباعه .

إن الفضائل تفسد إذا لم يساندها الحرص العاقل. وروسو يطالبنا بألا نتجاوز طبيعة الإنسان من خلال البحث عن وهم الكمال ، إنه يطالبنا بالسعي إلى ما هو أفضل لطبيعة الإنسان وطبيعة المجتمع . ويؤكد على الإرادة والشعور والعقل ، فهذه العناصر ضرورية لكي يوصف الإنسان بأنه فاضل [١] ومهما كانت الفضيلة جوهرية لكمال الإنسان الأخلاقي فإنها لكونها لا تنعزل عن مصلحته في أرقي معنى لابد أن نجد دائماً الرد في شعور أعمق بكثير وأقوى من الدوافع المؤقته للإنسان الطبيعي . وإذا كان على الفرد أن يحب الخير الذي يساعده عقله على معرفته وإرادته على أن تختاره فإن عليه أن يعتمد على الشعور الداخلي الذي يمكنه أن يقاوم سفسطة العقل وخداع العاطفة الأنانية . إن روسو يصر على أهمية الشعور الداخلي نظراً لأن الفضيلة ينبغي أن تعتمد في النهاية على حاجة طبيعية للقلب الإنساني وعلى الانفعالات الحقيقية للروح التي ينيرها العقل . والضمير عند روسو هو العنصر الأساسي في الأخلاق ، إنه هو الصوت الداخلي أو النور الداخلي الذي يؤدي بنا إلى طريق الحقيقة والفضيلة .[٢] إن الفضيلة كما وصفها روسو توصف بأنها طبيعية ولكن لا يجب أن نفهم ذلك على أنه ينكر دور العقل ، فالفضائل تصاب بالعجز إذا لم تتعاون مع العقل .

---

(1) **Loc – Cit** .
(2) **Ibid** PP : 64 – 65 .

ودعوة روسو الأساسية تدعونا بألا نتجاوز حدود الطبيعة الإنسانية بالسعي إلى تحقيق الكمال ، وهو يعارض بذلك الفلاسفة الذين يعتقدون بأن الإنسان يمكن أن يصل إلى الكمال . فالأخلاق الحقيقية ترتكز على الشعور والإرادة والعقل ، وعلى أساس هذه العناصر يطالب روسو بتحقيق ما هو أفضل للإنسان والمجتمع الإنساني من الناحية الأخلاقية .

لقد أخذ كانط عن روسو فكرة "الإرادة العامة" بوصفها المثل الأعلى لشتى الإرادات الفردية ، فالإرادة العامة قد انطلقت أساساً من روسو واتخذت سبيلها إلى كانط . وكانط يعتقد بأن القانون الأخلاقي لا يصدر من خارج الإنسان وإنما هو قانون عملي كلي باطن فينا ، كما أنه يتسم بأنه سامٍ وعالٍ علينا . أي أنه توجد ذات مستقلة تتسم بالاستقلال الذاتي ، إنها الذات المطلقة . ولما كان العقل ــ في رأي كانط ــ يمثل الماهية الباطنة الخالدة للموجود البشري ، فليس بدعاً أن نراه يقيم الأخلاق على قوانين الطبيعة العاقلة مستبعداً من حسابه كل اعتبار للخبرات الوضعية ، والتلقائية المباشرة ، والدوافع الخارجية ، والميول الوجدانية. (١) إن فكرة الإرادة العامة التي تنسب إلى روسو قد شقت طريقها إليه من الأبحاث اللاهوتية في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر ثم اختلطت بالصيغة السياسية في كتابه "العقد الاجتماعي" ، وتفسيرات الإرادة العامة منذ روسو قد اصطبغت إلى حد ما بتوجهات الثورة الفرنسية ودور المفكر والتصور الذي يلعب دوراً

---

(٣) دكتور زكريا إبراهيم ، **مرجع سابق** ص ص : ١٤٥ - ١٤٦ .

في التبرير الأيديولوجي للثورة وتقييم ميراثها. [١] ففكرة الإرادة العامة التي أتى بها روسو قد انتقلت كما ذكرنا إلى كانط فأصبحت عنصراً أساسياً في نظريته الأخلاقية .

وعندما يتحدث كانط عن إقامة قوانين الأخلاق على أساس الطبيعة العاقلة فإنه يختلف بذلك عن روسو . يقول كانط " إن مصير العقل ينبغي أن يتجه إلى بعث إرادة خيرة فينا لا تكون وسيلة لتحقيق غاية من الغايات بل تكون إرادة خيرة في ذاتها . إذ العقل هو الملكة العملية ، من أجل هذا كان وجود العقل أمراً تقتضيه الضرورة المطلقة. قد لا تكون هذه الإرادة هي الخير الأوحد ولا الخير كله ، ولكن ينبغي أن تكون بالضرورة الخير الأسمى والشرط الذي يتوقف عليه كل خير آخر ، بما في ذلك النزوع إلى السعادة . في هذه الحالة يكون مما يتفق مع الحكمة التي تتجلى في الطبيعة ما نستطيع أن نلاحظه من أن ثقافة العقل ، التي لا غنى عنها لتحقيق الغاية الأولى المطلقة ، تحد من وجوه كثيرة من تحقيق الغاية الثانية ، المشروطة دائماً ، ألا وهي السعادة ، في هذه الحياة على الأقل ، لقد ينتهي بها الأمر إلى أن تحيلها إلى لا شيء . ذلك لأن العقل الذي يعرف أن هدفه العملي الأسمى هو إقامة إرادة خيرة ، إنما يحس عند بلوغ هذا الهدف بنوع من الرضا الذي يناسب طبيعته ، وهو الرضا الذي ينبع عن تحقيق غرض لا يعينه إلا العقل نفسه ، وإن ارتبط ذلك بشيء من الضرر الذي يلحق أغراض

---

(1) http : // science. Jrank. Org/ pages/ 7720/ general-Will. Html # ixzzokymEIpcR&C

النوازع النفسية " . [١] فالعقل عند كانط هو العامل الضروري للإرادة الخيرة ، إذ العقل هو الموجه والمرشد الذي يقود الإرادة إلى الطريق السديد . فعند كانط أن العقل هو الملكة العملية ومن ثم فإن العقل أمر تقتضيه الضرورة المطلقة ذلك أن الهدف الأسمى للعقل هو إقامة إرادة خيرة .

ويرى هنري أيكن في وصفه وتحليله للعلاقة بين روسو وكانط أن فلسفة كانط تتسم بالأصالة والجدة في المواضع التي لم يكن فيها متأثراً بروسو ، وفي هذا الصدد يقول " [●] إنه موضع قصير توقف عنده كانط في حذوه حذو روسو ذلك حق بالنسبة للفهم الصحيح لاتجاهه الفلسفي. وأن أي محاولة للابتعاد به ، كما حاول أن يفعل بعض المفسرين ، إلى ما بعد البداية الحقيقية للعصر الرومانتيكي تؤدي إلى سوء فهم صارخ لتعاليمه".[٢] والحق أن كانط قد وضع نظريته

---

(٢) إما نويل كانت ـــــ **تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق** ـــــ ترجمة دكتور عبد الغفار مكاوي ـــــ مراجعة دكتور عبد الرحمن بدوي [الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠]. ص ٢٠ ــ ٢١ .

(●) It is where Kant stops short in following the lead of Rousseau that is essential for a correct understanding of his philosophical temper. Any attempt to push him, as some commentators have tried to do, beyond the threshold of the Romantic Age invariably results in egregious misconceptions of his teaching.

(1) Aiken henry D. **The age of ideology** – The 19 th Century Philosophers p : 52 .

هنري أيكن ـــــ **عصر الأيدلوجية** ــ ترجمة د/ فؤاد زكريا ص : ٦٤ .

الأخلاقية على نحو جديد وأصيل تماماً إلا أنه يدين بالشيء الكثير لروسو وخصوصاً حين نبهه إلى أهمية الضمير الذي استوحى منه كانط بعد ذلك مسلمات العقل العملي .

٢- الضمير الأخلاقي عند روسو :

لقد جعل روسو العبادة الرئيسية هي عبادة القلب أي الشعور الباطن المتمثل في الضمير ، تلك الغريزة الإلهية الحاكمة على الخير والشر .[١] ومن المهم أن نرى أن أكبر وصف لروسو للضمير يظهر في إظهاره الرسمي للإيمان الديني . إن الضمير عند روسو هو غريزة إلهية من ناحية ، ودافع أولي أو شعور من ناحية أخرى ، فالضمير إلهي لأنه يخص الجزء الروحي من وجود الإنسان ومن ثم فالضمير هو صوت الروح تماماً وهو يمثل للروح ما تمثله الغريزة للجسد [٢] . إن الضمير كما وصفه روسو هو شعور أكثر منه حكم ، إذ فيه وضوح الطبيعة وبساطتها . ومن هنا فإننا لسنا في حاجة إلى الفلسفة العقيمة أو دهاء التأمل للبرهنة على حقيقة الشعور الداخلي أو الصوت الذي يمكن لكل وجود إنساني أن يجربه في ذاته .[٣] فالضمير عند روسو ينقسم إلى قسمين ، **الأول** روحي و**الثاني** شعوري أو طبيعي وفي هذا التقسيم لا وجود لأي نوع من أنواع الفكر النظري. ولعل تحليل روسو للضمير على هذا النحو هو ما أعجب به كانط فيما بعد . وطالما أن الضمير هو

---

(١) دكتور عبد الرحمن بدوي ـــــ **مرجع سابق** ص : ٢٧٤ .

(2) Grimsley Ronald – **Op – Cit** , P : 65 .

(3) **Ibid** PP : 66 – 67 .

شعور فيه بساطة الطبيعة فإنه ليس لنا حاجة للفلسفة أو التأمل العقلي لإثبات حقيقتة ، وكل ما يستطيعه كل إنسان هو أن يجربه في ذاته .

وعبارة روسو الرائعة تصور موقفه من الضمير على أكمل وجه إذ يقول : "أيها الضمير أيها الضمير ! أنت غريزة إلهية ، وصوت سماوي خالد ، ومرشد أمين لكائن جاهل محدود، ولكنه ذكي وحر ؛ أنت حاكم لا يخطئ حكمه على الخير والشر ، مما يجعل الإنسان شبيهاً بالله! أنت الذي تصنع سموّ طبيعته وأخلاقية أفعاله؛ بدونك لا أستشعر في نفسي شيئاً يسمو بي فوق الدواب ، اللهم إلا الامتياز البائس لضلالي في أخطاء بعد أخطاء بمساعدة ذهن بلا قاعدة وعقل بغير مبدأ ". (١) تجسد هذه العبارة الرائعة اهتمام روسو بالضمير وتؤكد أنه إلهي وطبيعي في نفس الوقت وتعارض كذلك كل تفكير مجرد للضمير ، ويبقى السؤال لماذا ركز روسو على الكائن الجاهل ؟ والجواب هو أن هذا الإنسان الذي يعيش وفقاً للطبيعة تحركه عواطفه ومن ثم لا يلعب التأمل دوراً في إخراجه عن طبيعته الحقيقية .

ولكن "روسو" نفسه لم يرض كانط تمام الرضا ، لأن مبادئه الأخلاقية لم تصغ صياغة دقيقة ، والذي نجده عنده أشبه بأن يكون هو الشعور بالقانون الأخلاقي ،لا تعريفه . وهو لا يكاد يجاوز فكرة الضمير ، وهو أشبه بأن يكون أداة للقانون من أن يكون هو القانون نفسه . (٢) وبالنسبة لروسو فإنه عبارة عن رجل (•) أحيا تأثير العاطفة

---

(١) دكتور عبد الرحمن بدوي ، **مرجع سابق** ص : ٥٣ – ٥٤ .

(٢) إميل بوترو ، **مرجع سابق** ص ص : ٣٠٠ – ٣٠١ .

وأرجعها إلى ما يسمى حقائق القلب والتي لا يمكن إثباتها عن طريق المنطق[١].

إن الصعوبة الرئيسية للنظرية الروسوية للضمير تكمن في القرارات المصحوبة بالعقل . وفي إطار التعاليم الإسكولائية ، يحتل الضمير فعلاً مكانة هامة في الحياة الأخلاقية . ولكنه متضمن بأكمله تماماً في التأمل ، وجان جاك روسو يعارض بكل وضوح هذا التفسير : الضمير هو شعور . وعلى أية حال ، فإن هذا الحب التلقائي للخير ينمي في الوقت ذاته عملية عقلية معينة . والعقل على نحو أخلاقي متعادل ، ينبغي أن يقدم إلى الضمير المطالب التي يدور حولها في هذا الصدد لكي يصل إلى نتيجة معينة يمكن بالتالي أن تتحدث عن أخلاق أصيلة معينة إذا أوضحت المعرفة العقلية وحدها الحركات الأولى للضمير . وحول هذه النقطة ، فإن صاحب مهنة الإيمان للقس سافوي يستوحي من مالبرانش بخاصة ما ييسر تلك المسألة بالرغم من ذلك كله.[٢] واضح أن روسو لا يرفض مسألة وجود عقل وإنما يرفض كل التفسيرات العقلية للضمير وبخاصة تلك الأنساق الفلسفية السائدة في القرن السابع عشر، والمثير حقاً هو أنه يجعل العقل في خدمة الضمير ويقيم تعاوناً فعالاً بينهما .

(●) il est avant tout L'homme qui a révélé les " puissance du sentiment " et rendu toute leur valeur à ces " vérités du coeur" qui ne se démontrent pas par logique..

(3) Romet Damil– **Rousseau** [kadier , Paris 1950] P : 112 .

(1) www.memo .fr/en/article.aspx?ID=JJR_IDE_004

أما كانط فإنه قد رأى أن الضمير الخلقي منبع الواجب الخلقي الذي هو نداء من الضمير. إن هذا النداء لا يتقدم إليّ كموضوع للمعرفة فيحتمل الشك و إنما هو يأتيني كيقين مطلق من وجودي العميق بقصد العمل . ومن ثم فهو منبع لإرادتي الحرة وليس هدفاً لها [١] . من هنا نلاحظ أنه توجد أوجه شبه وتأثيرات قوية بين روسو وكانط. فلقد رفض روسو الميتافيزيقا لأنها ثمرة العقل وأشاد بالمشاعر والعواطف الطبيعية في الإنسان والعودة إلى حالة الفطرة والبراءة الأولى. وما نريد أن نؤكد عليه مراراً هو أن كانط هو الآخر قد حارب الميتافيزيقا الانطولوجية شأنه في ذلك شأن روسو ليؤسس ميتافيزيقا جديدة على أساس الضمير الخلقي وجعل الحرية والنفس والألوهة من مباديء الضمير بل جعل الإنسان من هذه الجهة أقرب إلى الشيء في ذاته. متأثراً بالطبع بفضل روسو عليه حسب اعترافه هو نفسه بذلك .

وبالعودة إلى روسو فينبغي القول أن الضمير لأنه يتأسس في الشعور أو الغريزة التي تضطرنا إلى حب الخير، فإنه لا يتبع ذلك أن به أي معرفة محددة للخير . والمبدأ الذي كان ملائماً للإرادة هو أيضاً ملائم للضمير ؛ والضمير يحتاج إلى أن يكون مستنيراً . وبالرغم من أن الشعور الفطري يدفعنا تلقائياً نحو الخير ، فإنه لا يزال في حاجة إلى أن يكون معقولاً . والضمير لكي يكون فعالاً فإنه يحتاج إلى التعاون مع العقل . والعقل وحده يعلمنا أن نعرف الخير والشر . وكذلك الضمير هو الذي يجعلنا نحب الأول ونكره الآخر ، وبالرغم من

---

(٢) دكتور محمد ثابت الفندي ، **مرجع سابق** ص : ٥٧ .

استقلال العقل ، لا يمكن أن يتطور بدونه . ولكي تعرف الخير فهو ليس أن تحبه ، ولكن بمجرد أن يجعله العقل معروفاً له . وأن ضميره يضطره إلى حبه : إنه هو هذا الشعور الفطري . وهكذا يدعم الضمير والعقل كل منهما الآخر [١] . إن روسو لا يقيم حداً فاصلاً بين الضمير والعقل ، صحيح أنه رفض العقل ، لكن العقل الذي نبذه روسو هو العقل المجرد والفلسفة النظرية أو ما يسمى بدهاء التأمل . إنه ركز على الضمير ورأى أن الضمير في حاجة إلى العقل ، وعنده أن العقل رغم استقلاله فإنه لا يمكن أن يتطور بدون الضمير . وفي نظره أيضاً أن الإنسان ليس لديه معرفة بالخير . وبمجرد أن يجعل العقل الخير معلوماً للإنسان ، فضميره يدفعه إلى حبه ، ومن ثم فالضمير يعزز العقل ويدعمه ، والعقل بدوره يدعم الضمير ويعززه .

ومن المؤكد أن الضمير بالرغم من أنه يشترط وجود الدافع الأصلي الأولي . والذي يجعل دراية الإنسان ممكنة ومؤدية للخير ، إنه يعمل بالارتباط مع قوى الإنسان، والإنسان كذلك يستطيع بأمان أن يثق في عينيه وضميره وحكمه ، فلديه الضمير ليحب الخير ، والعقل ليعرفه والحرية ليختاره . [٢] وروسو في فلسفته الأخلاقية يؤكد على ثلاث عناصر أساسية في الشخصية الإنسانية وهي الضمير والعقل والحرية، فالضمير يدفعنا إلى حب الخير ، والعقل يقودنا إلى معرفته ، والحرية تقودنا إلى اختيار الخير .

---

(1) Grimsley Ronald – Op – Cit , P : 67 .
(2) **Ibid** P : 67 .

إن حضور الضمير داخل الذات وقوة الإنسان في تعاليه عن الدوافع الفورية للغريزة والعاطفة تكشف عن إمكانيات فعالة لوجوده . وهو لا يطيع سلبياً دوافع شهواته الجسدية بل يختار أن يعيش بمقتضى مبدأ أعلى ، وهذا يعني أنه يريد أن يربط وجوده بتصور النظام الذي يوجد وراء احتياجاته الفورية . ومع أن الشعور العميق ينشطه ، فإن ضميره يعبر عن أعماله ذاتها. وصوت الروح يمكّن الفرد من أن ينتصر على صوت الجسد ويقيم علاقة إيجابية مع النظام بدلاً من أن يخضع سلبياً للإحساسات .[١] من هنا فإن تحليل روسو للضمير يوضح أن الإنسان لا يخضع خضوعاً تاماً لما تمليه عليه طبيعته فهناك مبدأ أعلى يكمن وراء احتياجاته المؤقتة الفورية وهو مبدأ النظام . إن الإنسان يريد أن يربط وجوده بتصور النظام. وروسو هنا يهدف إلى إقامة أخلاق جديدة تقوم لا على أساس التأمل العقلي المجرد وإنما على أساس طبيعة الإنسان. وتعبر أفكار روسو هنا أيضاً عن وجود ميتافيزيقا جديدة ولكنها ميتافيزيقا تتأسس على الطبيعة . ويفرق روسو بين العامل الروحي والعامل الجسدي ويجعل للعامل الروحي الهيمنة والغلبة على العامل الجسدي، فصوت الروح في نظره يمكّن الفرد من أن ينتصر على صوت الجسد ويقيم علاقة إيجابية مع النظام بدلاً من الخضوع السلبي للإحساسات .

---

(1) **Ibid P : 68 .**

يوضح هذا أيضاً أن حب الذات ليس عاطفة بسيطة ولكنها تشتمل في النهاية على مبدأين : مبدأ إيجابي ذكي ومبدأ حسي سلبي . وهكذا فإن العقل ذاته يمكن أن ينير الضمير المؤدي إلى قبول النظام . والضمير يتطور ويعمل فقط مع إدراك الإنسان ؛ إنه فقط من جراء إدراكه الذي ينشأ عن معرفة النظام . وإنه فقط عندما يعرف هذا النظام الذي يدفعه ضميره إلى أن يحبه . وكما هو الحال بالنسبة لتأكيدات "بير جلين" Pierre Burgelin فإن العدالة والفضيلة هما فقط المظهر الأخلاقي للمبدأ العام متضمناً التقدم المنظم لمؤثراتنا البدائية [١]. فروسو يتحدث هنا عن العقل لكنه لا يمضي في نفس الاتجاه الذي اتبعه دعاة المذهب العقلي ، فالعقل كما يفهمه روسو هو العقل الذي يعزز ويدعم الضمير ويقيم تعاوناً فعالاً بينه وبين الضمير، لقد قسم روسو عاطفة حب الذات إلى مبدأين أولهما إيجابي والآخر سلبي ، وإذا تأملنا هذا التقسيم ودققنا النظر فيه فسنجد أن العقل يستطيع أن ينير الطريق ويؤدي دوره الحقيقي في العامل الإيجابي الذكي لمبدأ حب الذات . ومن ثم فإن العقل ذاته يستطيع أن ينير الطريق أمام الضمير المؤدي إلى قبول النظام ، هذا من جهة، والضمير يتطور ويعمل فقط مع إدراك الإنسان من جهة أخرى .

وبهذه الطريقة يصل الفرد إلى إدراك أنه لم يعد وجوداً منعزلاً وإنما جزء من النظام العالمي والكل العظيم . إنه فقط حينما يدرك هذه العلاقة الأصلية بين ذاته وبين مبدأ النظام أي أنه يصبح قابلاً للأخلاق ، لأنه فقط عندئذ يدرك بحق إشكالية وجوده الخاص، ويؤدي به التطور

---

(2) **Ibid** PP : 68 – 69 .

الأخلاقي الكامل للفرد ويقوده لمعرفة ضرورة إقامة علاقات منظمة مع وجوده الداخلي الخاص، والناس الآخرين ، والله .[١] فإذا كان روسو يعطي أهمية خاصة لمبدأ النظام وهو المبدأ الذي يكمن خلف احتياجات الإنسان فإنه يؤكد في نفس الوقت أن الأخلاق تنشأ حينما يدرك الفرد هذه العلاقة الأصلية بين ذاته وبين مبدأ النظام أعني أنه يصبح مهيأ لقبول الأخلاق .

ويكتسب حب الذات الآن البعد الروحي الذي حمل الفرد فوق شهوات الإحساسات الداخلية لكي تجعله على دراية بالعلاقة بين حب الروح ومبدأ النظام . وأخيراً ، ومن ثم ــ وهذه بالفعل واضحة في افتراض روسو للضمير ــ تحليل الوجود الأخلاقي للإنسان لابد أن يكتمل بواسطة اعتباره لمصيره الديني[٢]. من هنا استوحى كانط مذهبه الأخلاقي ومسلمات الضمير.

وكما هو معروف عند كانط وما اشتهرت به فلسفته النقدية أيضاً وبالتحديد في كتابيه نقد العقل النظري ونقد العقل العملي أن المواقف الأولى للإنسان كشيء في ذاته هو مبدأ للعمل والأفعال ، لذلك سماه كانط عقلاً عملياً . ولمس فيه الإنسان الحقيقي، واستنبط منه كل ما أنكره من الميتافيزيقا العقلية الخاصة بالإنسان الظاهري في إطار ظواهر العالم من ألوهة ونفس وخلود . هذا ما اشتهر به كانط وعرف عنه من خلال فلسفته. ولقد تحدث كانط عن الحرية التي يشملها الواجب

---

(1) **Ibid** PP : 68 – 69 .
(2) **Loc – Cit** .

بوصفها القدرة على أدائه. يقول كانط " إن الحرية(●) على أية حال هي الفكرة الوحيدة ، من بين جميع أفكار العقل التأملي ، التي نعرف إمكانياتها ، وذلك لأن هذه الفكرة هي شرط القانون الأخلاقي الذي نعرفه".(١) وبالنسبة لحرية الإرادة ، والله والخلود ينبغي الإشارة إلى أنه إذا كانت أفعالنا مقدرة سلفاً وأننا نرتد فحسب هنا وهناك ككرات السنوكر ، فإننا لا نستطيع أن نصفها بأنها حرة ولا تطبق الأخلاق علينا. إن كانط لا يمكن أن يثبت أننا أحرار إنه بدلاً من ذلك ، يفترض أننا يمكن أن نتصرف على نحو أخلاقي ، ومن أجل هذا من ناحية أخرى ينبغي أن نكون أحرار . ويعتقد أيضاً أنه يتلو ذلك أنه ينبغي أن يوجد هناك إله وحياة بعد الموت، وألا فإن الأخلاق ستكون بلا معنى . (٢) تلك كانت إشارة عابرة حول العقل العملي ومسلماته عند كانط . ولن نسترسل أبعد من ذلك في تحليل هذا الموضوع .

(●) freedom , however, among all the ideas of speculative reason is the only one whose possibility we know a priori . we do not understand it , but we know it as the condition of the moral law which we do know .

(1) Kant Immanuel – Critique of Practical reason – translated , with an introduction , by : lewite beck (the liberal arts press new york1956) p : 4 .

(2) www. Rsrevision. Com /Aleve/ ethics/ Kant / index . htm..

نتـــائج البحـــث

في ضوء هدف هذا البحث وهو بيان كيف كانت أخلاق العاطفة نقطة البداية التي انطلقت منها أخلاق الواجب وبيان كيف تأثر كانط بروسو في فلسفته الأخلاقية وكيف اختلف عنه . فقد انتهت هذه الدراسة إلى النتائج الآتية :

أولاً : إن أخلاق العاطفة هي البيئة المناسبة التي نمت فيها نظرية كانط في الواجب الأخلاقي . فالميتافيزيقا التي رفضها كانط في العقل النظري وقال باستحالتها كمعرفة قد أعاد بنائها في العقل العملي على أسس جديدة متأثراً بروسو ومعترفاً بفضل روسو عليه. فأراد كانط كما هو الحال عند روسو أن يخلص الأخلاق من كل ما هو غريب، وأن يصل إلى فلسفة أخلاقية نقية نقاءً تاماً من كل اعتبارات تجريبية. ومن ثم أصبح الإنسان أقرب إلى الشيء في ذاته . لقد استوحى كانط من روسو ميتافيزيقا جديدة تقوم كنتيجة للواجب الخلقي ، لكنه لم يمض معه على طول الطريق ، إنه اهتم بالواجب الخلقي الذي يقوم على العقل .

وما أعجب به كانط من روسو القول بأولية الإرادة الأخلاقية ، لكنه رأى أن الإرادة الأخلاقية هي إرادة عاقلة تستوعب في مضمونها تصور القانون . أما نقطة الاختلاف فإنها تتمثل في أن كانط لم يتبع روسو في ازدرائه للعقل النظري . والنقطة الثالثة هي أن كانط لم يتابع روسو في إخضاعه المعايير العقلية للمعايير الأخلاقية أو الدينية وعند

كانط أنه لا يجوز التخلي عن قوانين المنطق لحساب الضمير أو الإيمان.

ثانياً : إن المبدأ الذي أرساه روسو يختلف تماماً عن المبدأ السقراطي، فبدلاً من القول بأن الفضيلة علم كما هو الحال عند سقراط فإن روسو قد ربط بين الفضيلة والجهل ، ومن ثم حلت العاطفة محل العقل . كما يختلف مع ديكارت ففي حين اهتم ديكارت بال"أنا" فإن روسو اهتم بالحياة البدائية للإنسان ، واتفق مع ديكارت فقط في حذف ما هو مفتعل وغريب عن طبيعة الإنسان ، إنه أراد أن يقيم ميتافيزيقا جديدة لا على أساس العقل المجرد وإنما على أساس طبيعة الإنسان من عواطف وميول ورغبات وغير ذلك من الأمور الطبيعية .

ومن علامات تأثر روسو بالروح العلمية في عصره متأثراً بنيوتن أنه اكتشف في العامل الأخلاقي ما يمسك على الطبيعة الإنسانية وحدتها. وحديث روسو عن الشفقة الطبيعية والحب وغيرهما هو انعكاس للروح العلمية السائدة. ولكنه يختلف عن عصره في اهتمامه بالجانب الطبيعي في الإنسان وإقامة الأخلاق على أساس الضمير والحرية الطبيعية .

أما بالنسبة لكانط فإنه رغم تأثره بروسو فإنه لا يتفق تماماً معه في مسألة الفضيلة . فإذا كانت الفضيلة عند روسو توصف بأنها طبيعية فإن كانط نظر إلى الفضيلة نظرة تختلف عن نظرة روسو إليها ، إذ أن كانط قد ميز بين الفضائل المتبناه المحددة بشعور بسيط ، وبين الفضائل بالمعنى الدقيق وهي التي يحددها مبدأ ما . ويختلف كانط عن روسو ،

ففي حين يمجد روسو كل ما هو طبيعي في الإنسان، فإن كانط يرفض كل علاقة بين الضمير والطبيعة ، وفي حين ينظر روسو إلى العاطفة والشفقة على أساس أنهما مجرد إحساس طبيعي فإن كانط ينظر إلى الواجب القائم على العقل على أساس أنه الباعث الحقيقي وليست العناصر الطبيعية . ومن ثم يلتقي كانط مع المسيحية .

ثالثاً : لقد اهتم روسو بعناصر ثلاث في الشخصية وهي الشعور ، والإرادة ، والعقل فعندما يتفاعل الشعور والإرادة والعقل تتولد الحرية . والإرادة إذا كانت في حاجة إلى أن ينشطها الشعور فهي أيضاً تحتاج إلى العقل لكي يقودها إلى الطريق القويم . وفكرة الإرادة العامة التي أتى بها روسو قد انتقلت إلى كانط فأصبحت مكوناً ضرورياً لا غنى عنه في نظرية كانط الأخلاقية. وإذا كان كانط قد استفاد من روسو مسألة أولية الإرادة فإن كانط قد امتد بتجلياته فأضاف أن هذه الإرادة هي إرادة عاقلة تستوعب في مضمونها تصور القانون ، ومن ثم فإن العقل عند كانط هو العامل الضروري للإرادة الخيرة ، إذ العقل هو الموجه والمرشد الذي يقود الإرادة إلى الطريق السديد . فعند كانط أن العقل هو الملكة العملية، ومن ثم فإن العقل أمر تقتضيه الضرورة المطلقة ذلك أن الهدف الأسمى للعقل هو إقامة إرادة خيرة .

والحق أن كانط قد وضع نظريته الأخلاقية على نحو جديد وأصيل تماماً إلا أنه يدين بالشيء الكثير لروسو وخصوصاً حين نبهه إلى أهمية الضمير الذي استوحى منه كانط بعد ذلك مسلمات العقل العملي.

رابعاً : يؤكد روسو في فلسفته الأخلاقية على ثلاث عناصر رئيسية في الشخصية الإنسانية وهي : الضمير والعقل والحرية ، فالضمير ينزع دائماً إلى حب الخير ، والعقل بطبيعته هو المرشد الذي يقودنا إلى معرفة الخير ، والحرية تقودنا إلى اختياره . وبالنسبة للضمير وهو العامل الأساسي في فلسفته الأخلاقية حيث يحتل مكانة هامة في فلسفته ، وإذا كنا نتكلم عن العقل والضمير فإننا نجد أن روسو لا يرفض مسألة وجود عقل وإنما يرفض كل التفسيرات العقلية للضمير وبخاصة الفلسفات النظرية التي لا تستند إلى طبيعة الإنسان من مشاعر ورغبات وعواطف وأهواء ، والحق أن روسو يجعل العقل في خدمة الضمير ويقيم تعاوناً فعالاً بينهما . إن روسو لا يقيم حداً فاصلاً بين الضمير والعقل ، صحيح أنه رفض العقل ، لكن العقل الذي نبذه روسو وحط من قدره هو العقل المجرد والفلسفة النظرية أو ما أسماه هو بدهاء التأمل . إنه ركز على الضمير ورأى أن الضمير في حاجة إلى العقل ، إن العقل رغم استقلاله فإنه ليس في مقدوره أن يتطور أو ينمو بغير الضمير. وأن الإنسان ليس لديه معرفة بالخير. وبمجرد أن يجعل العقل الخير معلوماً للإنسان ، فضميره يدفعه إلى حبه ، ومن ثم فالضمير يعزز العقل ويدعمه ، والعقل بدوره يدعم الضمير ويعززه .

أما الضمير الخلقي عند كانط فإنه منبع الواجب الخلقي. ومن ثم فهو منبع للإرادة الحرة وليس هدفاً لها. إذن لقد جعل كانط الحرية والنفس والألوهة من مبادئ الضمير بل جعل الإنسان من هذه الجهة أقرب إلى الشيء في ذاته .

أولاً : قائمة المراجع الإنجليزية

[1] Aiken henry D. **The age of ideology** – The 19 the Century Philosophers [published by The New American Library 1956] .

هنري أيكن ــ **عصر الأيدلوجية** ــ ترجمة دكتور فؤاد زكريا [مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٣].

[2] Cassirer Ernest – **Rousseau , Kant, Goethe** – Translated from German by J . Gutmann . Osker and J . Herman Princeton [Univeristy Press 1947] .

[3] Grimsley Ronald – **the philosophy of Rousseau** – [London, oxford university 1973] .

[4] Kant Immanuel – **Critque of prue reason** – Transilated by kemp smith Macmillan and Co., Limtied st, Martin's street [London 1934] .

[5] Kant Immanuel – **Critique of Practical reason** – translated , with an introduction , by : lewite beck [the liberal arts press new york1956].

[6] Rousseau Jean Jacques – **The Social Contract and Discouress**, [Everyman's Library, London , 1983].

ثانياً : المراجع الفرنسية

[1] Rousseau Jean Jacques – **Emile Ou de L'education** editions [Gallimard 1969]

[2]Rousseau Jean Jacques – **Discours sur les Sciences Et Les Arts– Discours sur L'origine De L'inégalité** – [paris 1971]

[3] Mortinet, Ander, **La cirlisaton Francaise Hatier** [Paris 1956].

[4]) Morent Damiel **Rousseau,** [Kalier Paris 1950] .

[5] Dictionnaire du Francais Re'pérence apprentissage – sous la- direction de Josette Rey – DeBove co outeur du Nouveou petit Robert [1993]

[6] Dictionnaire universel – PRODARD – Et Taupin – Collection 03 – Edition 04 – HACHEFTTE – Hachette

ثالثاً : الإنترنت

[1]http://www.editions-verdier.fr/v3/oeuvre rousseauphilo.html

[2] www. Rsrevision. Com /Aleve/ ethics/ Kant / index . htm..

[3] http : // science. Jrank. Org/ pages/ 7720/ general-Will. Html # ixzzokymEIpcR&C

[4] www.memo .fr/en/article.aspx?ID=JJR_IDE_004

رابعاً : قائمة المراجع العربية

[١] إميل بوترو - **فلسفة كانط** - ترجمة دكتور عثمان أمين [الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢] .

[٢] إما نويل كانت ، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ــ ترجمة دكتور عبد الغفار مكاوي - مراجعة دكتور عبد الرحمن بدوي الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ .

[٣] بول هازار ، **الفكر الأوربي في القرن الثامن عشر** ، الجزء الثاني ، نقله إلى العربية الدكتور محمد غلاب وراجعه الدكتور إبراهيم بيومي مدكور [القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٨] .

[٤] دكتور زكريا إبراهيم ، **عبقريات فلسفية ، كانط** [دار مصر للطباعة ١٩٧٢] .

[٥] دكتور عبد الرحمن بدوي ، **الأخلاق النظرية** ، [وكالة المطبوعات ١٩٧٥] .

[٦] دكتور محمد ثابت الفندي ، **مع الفيلسوف** [دار المعرفة الجامعية ١٩٨٧] .